الحكمة من خلق الخلق

اعلم بأن الله جل وعلا لم يترك الخلق سدى وهملا بل خلق الخلق ليعبدوه وبالإلهية يفردوه أخرج فيما قد مضى من ظهر آدم ذريته كالذر وأخذ العهد عليهم أنه لا رب معبود بحق غيره وبعد هذا رسله قد أرسلا لهم وبالحق الكتاب أنزلا لكي بذا العهد يذكروهم وينذروهم ويبشروهم كي لا يكون حجة للناس بل لله أعلى حجة عز وجل فمن يصدقهم بلا شقاق فقد وفى بذلك الميثاق وذاك ناج من عذاب النار وذلك الوارث عقبى الدار ومن بهم وبالكتاب كذبا ولازم الإعراض عنه والإبا فذاك ناقض كلا العهدين مستوجب للخزي في الدارين هذه مقدمة وذكر فيها العهد الذي أخذه الله تعالى على الخلق وهم في أصلاب آبائهم، وذكر فيها الحكمة في خلق الجن والإنس: اعلم بأن الله جل وعلا لم يترك الخلق سدى وهملا يعني أنه سبحانه ما خلقهم هملا، قال تعالى: { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى } يعني: لا يؤمر ولا ينهى، هذا ظن باطل، وقال تعالى: { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا } يعني أن خلقكم عبث لا لحكمة؛ بل خلق جميع المخلوقات قال تعالى: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } ؛ فالله تعالى لا يخلق شيئا من خلقه عبثا ومهملا لا يستفاد منه وليس فيه حكمة؛ بل كل شيء خلقه فلا بد فيه من حكمة، ما ترك الخلق سدى، ولا تركهم هملا، ولا خلقهم عبثا. بل خلق الخلق ليعبدوه وبالإلهية يفردوه خلقهم لعبادته قال تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } واللام في { إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } لام التعليل؛ يعني العلة في خَلْقِه لهم أن يعبدوه، خلقهم لعبادته، فعل بهم الأول أي: خلقهم؛ ليفعلوا الثاني أي: ليفعلوا العبادة، فعل بهم الأول؛ ليفعلوا هم الثاني، خلق الخلق؛ ليعبدوه وحده. والعبادة في الأصل هي: التذلل الذل والخضوع، ويسمون المماليك عبيدا؛ لأن المملوك مذلل لسيده، والخلق كلهم عبيد الله لأنهم ذليلون لعظمته، والعبادة هي: التذلل لله سبحانه، والخضوع له، والاستكانة بين يديه، ويعرفها شيخ الإسلام بأنها: غاية الحب مع غاية الذل، غاية الذل يعني التذلل، ولا بد أن يكون معه محبة، يتذللون لربهم ويحبونه. ونظم ذلك ابن القيم في النونية: وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان وعليهما فلَكُ العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبان ومداره بالأمر أمر رسوله لا بالهوى والنفس والشيطان فلا يكون العبد عابدا متعبدا إلا إذا كان محبا لمعبوده، ومتواضعا له؛ يعني معترفا له بالعبودية، ومع ذلك متواضع له، خلق الخلق ليعبدوه، وبالإلهية يفردوه؛ أي: يخصوه بالإلهية فلا يألهون غيره، والتأله هو: التعبد، الإله هو: الذي تألهه القلوب أي تحبه، وتعظمه بالإلهية، بجميع أنواع التأله يخصوه، هذه هي الحكمة من خلق الخلق.